الشعر العامي في جنوب لبنان .. إطلالة ولقاء
تاريخ "غير شرعي" وإبداع مشوب بالخطيئة

• جوقة زجلية • :
من اليمين جان رعد ،
زين شعيب ،
أسعد سعيد
وجوزف الهاشم
(زغلول الدامور) .

الشاعر يكتب باللغة التي يتقن . ذلك ان الشعر في غالب تاريخه لعبة لغوية جمالية ايقاعية تطمح الى الادهاش وللوصول الى ذاكرة الجماعة . من هنا فان تعبير الشعر الشعبي يبدو تعبيرا مصطنعا يفترض مستويين للشعر . شعبي ونخبوي . في حين ان الشعر ايا كانت لغته يمكن ان يكون شعبيا او نخبويا بحسب تعقيده ونمط جمالياته وحضوره لدى سواد القراء .

غير ان هذا التقسيم يفترض لغة واحدة تنسحب على الشعراء والمتلقين في آن . وهذا امر غير واقعي في اية لغة من اللغات . اذ ان اللغة تفترق بين مقولها ومكتوبها في زاوية تتسع او تضيق وفق مقدرة اللغة المكتوبة على امتصاص الكلام الجديد وصوغه في قوالبها الصرفية . والحال ان العربية من اوفر لغات العالم تمتعا بهذه المقدرة ينبئنا بذلك استمرارها من دون اللغات القديمة وتجددها عبر العصور ، واستيعابها للكلام الجديد في صياغاتها الرحبة والمرنة .

ومهما كانت زاوية الافتراق بين فصحى المشارقة وعاميتهم . فان هذه العامية ترفد الفصحى بجديد الكلام ، وتجعل منها مثالا في الصياغات في آن . كلا الطرفين يغذي الطرف الاخر فيتكاملان في جدلية ملحوظة . ولقد اثبتت الفصحى وتثبت انها مع خطوات محو الامية قادرة على ان تكون اكثر بساطة وان تضيق الى الحدود الممكنة من زاوية افتراقها عن العامية

وتبعا لهذا الافتراق. مهما كانت مسافته ، فان لدينا شعرا بالفصحى وآخر بالعامية . وهذا الاخير الذي هو موضوعنا يبدو بالضرورة حيويا عصيا على القوننة لأن القوننة من ميزات الفصحى . وهو ايضا اكثر عضوية واقتحاما فلا يابه غالبا بمقدس الصياغات والتراكيب . واذا ابه بذلك فهو ينسب لنفسه موقف الفصحى الذي لا يستطيع تحمله . فسرعان ما ينفض الناس عنه ويقطعون وريده الشعبي .

ولنلتفت الى الشعر العامي في جبل عامل . حيث الفصحى تتمتع بقداسة استثنائية كونها لغة القرآن والنصوص الفقهية . وحيث تطغى الثقافة الدينية على ما عداها باعتبارها حافظة لهوية الجماعة .

في مثل هذه البيئة يبدو الشعر العامي امرا شبيها بالخطيئة . ويميل العقل الجمعي الى تفضيل اتفه قصيدة بالفصحى على اروع قصيدة بالعامية . كون الاولى تمت بصلة الى المقدس والثابت وكون الثانية تعبيرا عن المؤقت والفاني

ان هذا التفضيل قد وسم الشعر العربي في جبل عامل بسمة ايديولوجية دينية منقطعة الاواصر عن المكان . فالنمط السائد من الشعر الفصحوي هو ذلك المنتسب الى كلام التراث ومناخه والذي يبني من الكلام يوتوبيا ويعتبر الواقع والطبيعة الراهنة والاقامة نوعا من العرض الزائل او الاثم .. ان هذا الموقف يلتقي عنده المتعلم والامي . ولذا لم يكتسب الشعر العامي شرعيته في جبل عامل ، الا متاخرا . مع نشوء دولة لبنان الكبير ووجود مسارب للثقافة الفصحوية غير المسرب الديني . أي مع وجود مثقفين مدنيين غير فقهاء .

ان الوضع الآنف الذكر استتبع عدم الاهتمام بتاريخ الشعر العامي في جبل عامل . وكان هذا الشعر اذ يقال يحفظه سامعوه الى حين ثم ينقرض شيئا فشيئا ولا يكتسب الا نادرا فضيلة التدوين والبقاء .. وتبدو الصورة السلبية هذه نافرة اذا قارنا التاريخ شبه المعدوم للشعر العامي في جبل عامل بنظيره وشبيهه الشعر العامي في جبل لبنان . اذ نجد ان هذا الاخير حظي بتتبع وتاريخ مفصل . ولا نعزو السبب كما هو شائع الى الشأن السياسي . فالموارنة في معظم تاريخهم رعوا الفصحى وفخروا بروائعهم المكتوبة بها . ولعل السبب كامن في ان ما يحفظ الجماعة المارونية هو تاريخها المدون وادبها العامي والفصحوي اللذان يعنيان في الدرجة الاولى بوصف المكان وايام الاقامة اكثر من عنايتهما بالايديولوجيا الدينية التي لا تنتمي الى مكان محدد

اذن فالشعر العامي العاملي وجد ونشا وترعرع في التاريخ غير الشرعي وغير المكتوب للجماعة اللبنانية العاملية . بيد ان هذا الشعر يندرج في ايقاعات الشعر العامي في لبنان وما يجاوره في سورية القريبة وفلسطين الشمالية

وان هذه الايقاعات هي الأبرز في الشعر العامي في لبنان وما يجاوره . وهي مشتركة تضفي اشكالا متشابهة على هذا الشعر . بيد ان ثمة بعض الخصوصيات المضمونية للشعر العامي في جبل عامل . ابرزها انه يحفل بالمفردات والصيغ الفصحى . ذلك ان الشاعر العامي في هذه البيئة الثقافية يطمح الى نظم القريض . فهو يقاربه في الصيغة والمفردات . وما قوله الشعر العامي الا لكونه حرم من تعلم اللغة واتقانها . فاذا قدر له ان يحصلها فهو ما يلبث ان يترك العامية الى كنف الفصحى فيكسب اعترافا وشرعية . وقد برع بعضهم في تقريب العامية الى الفصحى الى حد انه نظم قصيدة يمكن قراءتها باعتبارها عامية وباعتبارها فصحى لا شائبة فيها في آن (ثمة مثلان هما قصيدة « مي » غير المنشورة للسيد محمد المصطفى من بلدة حومين التحتا في قضاء النبطية . وقصيدة بلا عنوان لعبد الجليل وهبي من بلدة حاروف قضاء النبطية . ايضا . وقد وردت هذه الاخيرة في كتاب منير وهيبة الخازن المثبت في لائحة المراجع) . ومن الخصوصيات المضمونية وفرة الاستعارات من الوقائع ، والحكم والامثال الاسلامية . فالشعر العامي هنا يستعير موقع السجال الديني الذي وقف عنده الشعر الفصيح ويرتاح الى هذه الاستعارة .

• • •

كيف ينشا الشاعر بالعامية؟

في القرية . الجبلية . حيث المجتمع الزراعي لديه اوقات الفراغ الكثيرة . تعقد السهرات . ويجتمع الناس مطولا في مناسبات الافراح والاتراح . ويكون الشاعر نجم هذه التجمعات ومركز تحلقها وموضع المركز في تعبيراتها الفنية . تفخر القرية بشاعرها بين القرى والعائلة بين العائلات مستعيدة فخر القبيلة حين ينبغ فيها شاعر .

في السهرات الخاصة في القرية يتدرج الشاعر المبتدىء . اذ يتبادل المبتدئون قول الشعر . وسرعان ما ينتقل المبرز من حلقة الى حلقة اعلى حتى يكسب الاعتراف عندما يتبادل القول مع شاعر مكرس . ويتطلب هذا المعراج انتقالاً بين القرى . كما يتطلب بالضرورة الماما ثقافيا غالبا ما يكون تراثيا ودينيا .

ولكي تستقيم صورة نشاة الشاعر واعداده . خلاصة حديث أجريته مع الشاعر المعروف السيد محمد المصطفى في قريته حومين التحتا :

« لي من العمر ٥٨ سنة . ولدت ونشات ولا ازال في قريتي . تلقيت العلم على الشيخ عبد المنعم من انصار والشيخ عبد الله والمعلم حسن ثم الشيخ عارف الحر من جباع . كان عمره آنذاك ٢٠ عاما . وكان مرشدا وصديقا .

ابي كان يقوم بالتحكيم بين الشعراء . وقد احضر لي مبكرا مجموعة كتب قراتها . واذكر منها : عنترة . الزير . بعض التواريخ الاسلامية . كتاب الهضام . كتاب راس الغول ومرحب وواقعة الخندق .

من مكتبة الشيخ عارف الحر المنزلية قرات : امروء القيس . المتنبي . ابن المعتز . مختارات من الشعر العربي . الشريف الرضي .. يقول لي الشيخ عارف ارتجل فارتجل الشعر . واول ما ارتجلت امامه . ولقد كنت منذ الصغر احكي كلاما موزونا . ومن مرتجلاتي آنذاك اذكر البيت التالي :

حسنك خلقة ام سرقة يا ست الغيد
رصعتي نجوم الزرقا في در الجيد

بعد ذلك انطلقت ارتجل في المناسبة . وقد ارتجلت في عرس ببلدة جباع وكان اسم العريس حمد والعروس راجحة :

زانو عروسة حمد مع شمس الضحى
بميزان حسن لنشوف مين ناجحة
كفة اعتلت بالشمس حكمت بالفلك
وكفة عسطح الارض حكمت راجحة

اذكر انني كنت في الثانية عشرة من عمري وكان يحضر الى حومين الشاعر عبد المنعم الفقيه وهو في الخامسة والعشرين وكان يباري عباس نجم وفي السهرات يتحلق حولهما الناس . غنيت آنذاك قليلا من العتابا . ثم تباريت قليلا مع عبد المنعم .

منذ صغري تفتحت على بلدة فيها العديد من الشعراء : الحاج اسعد خليل بعلبكي (بارى شحرور الوادي وكان يغني في سيدة المنطرة في مغدوشة ويباري شعراء منهم قاسم ايوب من حاروف . الطبوش من كفرملكي . محمد طبنجة من البابليه . نجيب النحاس من كفرملكي . موسى شريم من حومين الفوقا) . السيد علي محمد (خالي) . ذياب نجم (شاعر ضرير قدير في الكتابة ضعيف في الارتجال . له « سجن اهل الفن » وهو قصيدة طويلة مطبوعة ذات معان غامضة وقد حاول حل الغازها حسن شكر من عنقون (في كتاب مطبوع) . الشيخ عارف الحر . محمود اسعد البعلبكي من حومين التحتا . رشيد نخلة من الباروك وشحرور الوادي من وادي الشحرور) . محمود الحاج اسعد البعلبكي وشقيقه علي الحاج البعلبكي .

منذ العاشرة من عمري كففت عن اللعب مع الاولاد وصرت اجالس الشعراء . ولقد اوصاني ابي فقال : « لا تسلك ما يسلك غيرك . بل احضر كلاما لم يتكلمه غيرك » . فصرت . وبحسب اطلاعي ارغب بالمفردات الجديدة غير المسموعة . وعندما تضيق امامي القافية الجا الى كلمة صعبة من احتياطياتي. هذا المنهج نهاني عنه عباس نجم وكان يقول انه غير مناسب للشعر الشعبي . الادباء والشعراء يعترفون انني عميق . قصائدي « اثقل » من غيرها . وعندما اساجل شاعرا اجيبه بـ « مسمار مفطى » .

اعتقد ان المطالعة مفيدة جدا للشاعر اضافة الى الموهبة . وانا منذ البدء عاشق للكتاب . ارعى البقر والكتاب في يدي . جهلت واحببت وعند الزواج وبعده بقي الكتاب في يدي . لقد جودت القرآن الكريم كله . قرات التوراة على الشيخ عارف ومقطوعات من الاناجيل . قال الشيخ عارف انها منحولة ولكنه اطلعني على عقائد المسيحيين .

امل من السياسة وقراءة الصحف واتعشق الحماسة . وشعر الحب ؟ كنت في فتوتي مغرما . وقد مالت عني من احب . كنت ارعى البقر فنظمت قصيدة « لماذا مي » في ساعتين ولم اصلح منها في ما بعد سوى اربع كلمات . وهنا مطلعها :

لماذا مي ما رحمت فتاها
وصدت بعد وصل . ما دهاها
اذنب في الصبابة كان مني
ام التعذيب طبع من هواها ؟
اذنب في الصبابة كان مني
ازال نعيم وصل الحب عني
يعيب بهاءها الواشي واني
اراها الشمس تطلع في سماها

والجوقة الزجلية ؟ اول جوقة في لبنان هي جوقة شحرور الوادي المؤلفة من : اسعد الفغالي (الشحرور) . علي الحاج . انيس روحانا . طانيوس عبده . ولقد كنت رديدا (مرددا) في هذه الجوقة .. واذكر ان جوقة الشحرور تبارت في الغازيه مع جوقة اخرى تضم وليم صعب ونعمة زيادة ومزيد حمزة ورابع لا اذكر اسمه.. حينئذ اكباريت وليم صعب وانا في الرابعة عشرة من عمري .

تتالف الجوقة الزجلية من رئيس وثلاثة شعراء .

مراحل الحفلة التي تقيمها الجوقة : في البدء الافتتاحية (فتوحية) خمسة او ستة ابيات . ثم يبدا الشعراء اثنين اثنين بالخطاب والجواب (عندما انشات مع خليل روكز « جوقة الجبل » كنت اراسها في الجنوب وكان هو يراسها في جبل لبنان . وقد طورنا الافتتاحية فكان كل منا يفتتح بثلاثين او اربعين بيتا) .

الافتتاحية تكون محضرة سابقا اما الخطاب والجواب فيرتجلان . ويحدث هنا فقط اتفاق مسبق على مواضيع الخطاب والجواب . منها مثلا . النقص والكمال . القناعة والطمع . الاول والاخر . الشمس والقمر . الاول والآخر (لم نكن انا وخليل روكز نتفق مسبقا على المواضيع وكذلك انا وعلي الحاج القماطي) »[4]

• • •

الشعر العامي في جبل عامل طمح دائما الى دور الفصحى . فقارب شكله من شكلها ما امكن الشعراء . وتصدى لموضوعاتها واغراض شعرها فكان منه الغزل والفخر والهجاء والمدح والرثاء والدعاء والزهد . وهو في المدائح والاهاجي كثيرا ما تعدى الشان الفردي الى الشان الجماعي . فكان منه شعر جغرافي بتقصد تعداد بلدانية جبل عامل او بعض اجزائها وكان من الشعر العامي العاملي ما يمتدح زعماء العشائر والعائلات ويشير الى معارك تاريخية معروفة . يقول « شناعة » من شعراء القرن الثامن عشر :

ويذكر وقعة صارت بصيدا
جموع ومالها حد تراها
لقا الجزار والدالي معاهم
كراد وغز ما نفعهم لغاها
عقيد الكل مير الشوف يوسف
بقومو صار للحارا وجاها
وقال اليوم نملك باب صيدا
ونملك ديرة بشارة معاها
حتم ناصيف بالجيرة وزمزم
برب البيت والمختار طاها
مازالي جاذب السرعين بيدي
بلادي ما احد غيري يطاها

ومن قصيدة لشاعر آخر

يوم كفررمان شنتوا العدى
وكلها شربت بكاسات الردى
المير يوسف لطريقوا ما اهتدى
شبعت وحوش البر من لحم القداد

والى جانب عنايته بالوقائع والفخر بانتصارات بني قومه كان الشاعر العامي مزودا بثقافة دينية هي نفسها ثقافة عامة الناس في جماعة عمادها الرابطة الدينية .

• • •

مع انفتاح جبل عامل على آفاق ثقافية متنوعة خرج الشعر العامي من اساره واستمر مستمدا من تاريخه الطويل والمجهول امانة لقضايا الوطن والانسان . فاندرج هذا الشعر في قضايا عربية عامة مع قضايا التحرر . كما تفتح فنيا مع جوقات القوالين التي عمت لبنان وجالت في المغتربات حتى ايامنا الحاضرة . وكان العامليون حاضرين مع شعراء الجبل في « الجوقات » جميعها ولقد وعوا مبكرا دورهم الفني والاجتماعي فاسسوا سنة ١٩٤٤ « الرابطة الزجلية العامية » التي تراسها آنذاك الشاعر علي الحاج البعلبكي (حومين التحتا) وكان اعضاؤها الشعراء : عبد الجليل وهبي (حاروف) . عباس نجم (حومين التحتا) . عبد المنعم الفقيه (عين قانا) . محمد علي درويش (الغازية) . اسعد سعيد (الصرفند) . محمد المصطفى (حومين التحتا) وكامل رضا (كفر حتى) .

والظاهرة الملفتة ان شعراء العامية في جبل عامل اقتصروا على اولئك الذين لم تتح لهم الظروف تلقي تعليم عال . ولم يكتب الشعراء الحديثون بالعامية بل اقتصروا في معظمهم على الفصحى. ان الشاعر اذ تعلم وصل الى ملكوت الفصحى وانس اليها . ولذا فان الشعر بقي امينا لمعطيات ثقافة العامليين : اعتبار العامية خطيئة . ولذا فالشعر العامي عند العامليين رغم مكانته البارزة اليوم . مآله الى انقراض اذا استمرت الشروط الحالية لثقافة الجماعة ومع تفكك العائلة وتمدين القرى .

محمد فرحات

(تنشر في الوقت نفسه في عدد مجلة « الباحث » الخاص بجنوب لبنان)

السفير، ٢٣ كانون الأول ١٩٨١، صفحة ١٠